

2000

جغرافية التمثلات: دراسة نظرية

الحسن بوبكراوي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، المغرب

العربي اسليماني

مفتش التعليم الثانوي ، الاجتماعيات ، مراكش، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Geography Commons](#)

Recommended Citation

"جغرافية التمثلات: دراسة نظرية and بوبكراوي, الحسن Dirassat: Vol. 10 , Article 2. (2000) اسليماني, العربي" Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol10/iss10/2>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

جغرافية التمثلات : دراسة نظرية

بوبكر اوي الحسن (كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مراكش)
اسليماني العربي (مفتش التعليم الثانوي ، الاجتماعيات)
مراكش

مقدمة

أصبح مفهوم التمثلات ، في السنوات الأخيرة ، من المفاهيم الأساسية في دراسة وتدرّس مختلف العلوم ، وخصوصا العلوم الإنسانية والاجتماعية . بالنسبة للجغرافيا ، فقد وجدت نفسها أمام إشكالية التمثلات أكاديميا ومدرسيا منذ خمسينيات القرن الحالي . ففي سياق الجغرافيا الجديدة وتشعب المعرفة المحايثة للمادة بدأ الحديث عن ذاتية المجال وعلاقته بالإحساسات والمخيال . ذلك أن المعرفة الجغرافية متميزة بخاصيتي الدينامية والسيرورة ، وكتاهما تحيل بالضرورة الى التمثلات المجالية لدى الفرد والجماعة .

إن أهمية التمثلات تكمن في راهنتها القصوى التي تؤكد إمكانية توظيفها في إعداد التراب وتدبير البيئة ودراسة التأثيرات (Les impacts) وفي العملية التعليمية أيضا .

إن الهدف من هذه الدراسة هو تحديد هذا المفهوم الجديد / القديم من خلال التطورات التاريخية والدلالية والسيمولوجية التي عرفها ، وبعد ذلك القيام بمقاربة جغرافية التمثلات من حيث الولادة المتعسرة والمنطلقات والمبادئ المنهجية والاستمولوجية وأخيرا معرفة واقع التمثلات في الإنتاج الجغرافي بالمغرب ثم ردود الفعل المترتبة .

1. التطور التاريخي والسيميائي لمفهوم التمثلات

1.1. التمثلات : مفهوم فلسفي النشأة

يعتبر السؤال حول علاقة الواقع بالفكر، وحدود التطابق والانفصال بين الخطاب والحقيقة وما ندركه منها سؤالاً قديماً من وجهة نظر تاريخية. ذلك أن العديد من فلاسفة الإغريق وفلاسفة الأنوار استهلكوه بكثرة. وتفادياً للإطالة نكتفي بنموذجين مثالين هما أفلاطون و كانط.

أفلاطون (347-428 ق.م.) يعد أول من نقل الحوار الفلسفي من الأرض الى السماء. إن المعرفة عنده تتم عبر مستويات ثلاثة : أولاً مستوى الحواس وثانياً مستوى المثل أثناء الحياة في العالم المحسوس ثم أخيراً مستوى المثل قبل وبعد حياتنا. يرى أفلاطون أن المعرفة الحسية ليست حقيقة مطلقة مادامت مركبة وقابلة للانحلال، وإنما هي معرفة بالحقيقة المختلفة المتغيرة. لذلك لا بد من تدخل الفكر الذي هو من فعل النفس. ويمكن فهم العلاقة بين التمثلات والواقع والحقيقة من خلال مجاز الكهف أو المغارة (L'allégorie de la caverne)⁽¹⁾.

كانط : (1724-1801) هو أحد فلاسفة الأنوار العقلانيين، ما يتميز به هو الثورة التي أحدثها في المعرفة الإنسانية حيث تجاوز الثنائية الديكارتية وعمل من أجل المصالحة (Transaction) بين الفطرية والامبريقية. إن المعرفة عند كانط تأتي من خلال عنصرين رئيسيين هما الحساسية (La sensibilité) والفهم (L'entendement)⁽²⁾. لقد بين كانط أن «العلوم الاجتماعية التي تعد الجغرافيا واحداً منها لا تصل الى معرفة الأشياء والمواضيع التي تبغي دراستها وإنما تصل فقط الى تمثلات حول هذه الأشياء»⁽³⁾.

2.1. التمثلات : مفهوم حاضر في كل التخصصات

لقد استطاعت العلوم الدقيقة أو «الحقة» خلال القرن 19، وبعدها العلوم الإنسانية والاجتماعية كالجغرافيا، أن تحقق القطيعة الاستمولوجية مع أمها الفلسفة. إلا أن هذا الإنجاز

(1) Platon, La république, Flammarion, Paris, 1966, p. 74.

(2) كانط إيمانويل، نقد العقل الخالص، الترجمة الفرنسية، محمد وقيد، ماهي الاستمولوجيا ؟ مكتبة المعارف، 1987، ص. 155.

(3) Bailly, Antoine et Ferras. Robert, éléments d'épistémologie de la géographie, Armand Colin, Paris, 1997, p. 15.

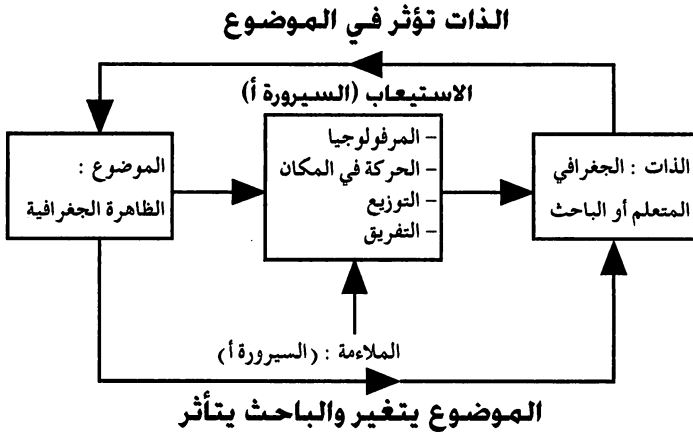
لم يمنع من اقتباس مفاهيم محورية كمفهوم التمثلات ، من طرف مختلف الحقول المعرفية والعلمية نذكر منها :

1.2.1. علم النفس الاجتماعي : يحلل التمثلات بصفاتها انساقا ذهنية وأطرا مرجعية تتيح للفرد إمكانية تأويل الأحداث والوقائع الخارجية . ذلك « أن تحصيل العالم الذي يحيط بنا ، وفهمه وحل المشاكل التي يطرحها « كل ذلك » لا يتأتى إلا عن طريق التمثلات التي تتكون لدينا عن هذا العالم ذاته»⁽⁴⁾.

2.2.1. علم نفس النمو المعرفي : من رواد هذا التخصص قطب الابستمولوجيا التكوينية المعاصرة جان بياجى ، وكذلك جروم برونير وفيكوتسكي وباشلار . يعرف بياجى التمثل هكذا « التمثل هو إما الإثارة والاستحضار الذهنيين لأشياء غائبة ، وإما إكمال المعرفة الإدراكية لأشياء حاضرة بالرجوع الى أشياء أخرى ليست مدركة في نفس الآن»⁽⁵⁾. إن التمثلات حاضرة في مختلف مراحل النمو العقلي الأربع التي يمر بها الطفل وفق البنائية أو التكوينية البياجية . هذه المراحل الأربعة هي المرحلة الحسحركية والمرحلة ما قبل الإجرائية والمرحلة الملموسة الإجرائية ثم المرحلة المنطقية الصورية . إن التمثل هو الوسيط بين الإدراك والمفهمة ، أي نتاج الحواس والفكرة المجردة العامة . فعن طريقه ينتقل الجغرافي مثلا من إدراك وفهم الكائنات الحية (الإنسان ، الحيوان ، النبات) الى مفهوم العشيرة الإحيائية (Biocénose) ، ومنها الى الوسط أو المدى الحيوي (Biotope) ، ثم الى مفهوم النظام البيئي كمفهوم أكثر شمولية (Ecosystème) . وهكذا فإن فهم ظاهرة جغرافية جديدة ودراستها يقتزمان بناء تمثلات جديدة منظمة كلية منسجمة وديناميكية . فالتمثل هو سيرورة لاستعمال صور ذهنية حيث تحصل المعرفة من خلال التفاعل بين الذات والموضوع ، أي من خلال الاستيعاب (Assimilation) والملاءمة (Accomodation) .

Jodelet, Denise et al, les représentations sociales, P.U.F., Paris, 1987, p. 31.(4)

Piajet, J., Inhelder, B, la représentation de l'espace chez l'enfant, P.U.F., Paris, 1947. (5)



شكل رقم 1 : إبستمولوجية التفاعل بين الذات والموضوع مستوحاة من جان بياجي (بتصرف كبير)

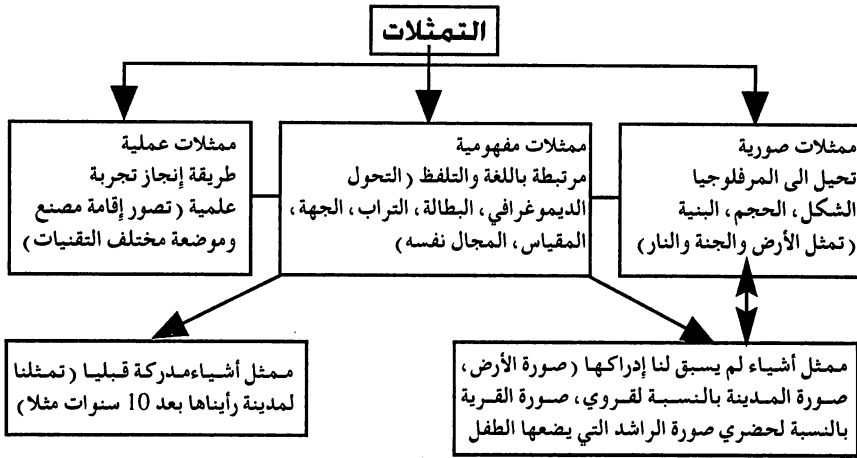
3.2.1. علم النفس المعرفي : يعرف التمثلات بأنها سيورة معرفية ونتاج لهذه السيورة في نفس الوقت . إنها مرتبطة ببنية كامنة تتوقف على منظومة تشكل حقلها الدلالي . كما أن التمثلات قد تكون نمطا من أنماط التفسير والتأويل ، إذ أن لكل منا إطارا مرجعيا يستند إليه في تفسير المعطيات الخارجية . والعلاقة بين السيورة والمعرفة ، علاقة تكوينية في رأي بوربولان(6) .

4.2.1. علم الاجتماع المغربي : يرى محمد بوغالي أن « كل تمثل إلا ويمتص معطياته وتنظيمه ، ولو كان مختزلا ، من سجلات ديناميكية خاصة ، لا تقبل الشك أحيانا » (7) فمن خلال تمثلاتنا للعالم في شكل مكونات مجالية مختلفة ومتعددة يمكننا أن نعرف بعض المظاهر وننفذ إلى بعض التجليات الأساسية لعقلية الناس الذين هم الأصل .

وعموما فإن تطور اللسانيات والسيمولوجيا ساهم في تقدم الاشتغال على التمثلات بمختلف أنواعها .

(6) Borbolan, Jean claude Ruano, une notion clef des sciences humaines, Revue, sciences Humaines, 1993, n° 27, p. 17.

(7) Boughali, Mohamed, la représentation de l'espace chez le marocain illettré, édit, (7) Afrique, Orient, Casablanca, 1974, P. 4.



شكل رقم 2 : الأشكال الثلاثة للتمثلات المعرفية

1.2. تحديدات أولية

رغم تعدد الأطر المرجعية والنظرية للجغرافيين، يمكن أن نلغي بينهم نوعا من التقاطع حول الصفات الرئيسية التي تصفيها العلوم الاجتماعية على مفهوم التمثلات، فالخلاف الوحيد الذي يحتمل وقوعه بين جغرافيين اثنين هو مجرد الأخذ بعين الاعتبار أولا، صفتي (Attributs) التمثل اللتين أشرنا إليهما سابقا : (السيرورة + النتائج). وتمشيا مع آليات هذه الدراسة نقدم بعض التعريفات الجغرافية :

- روجي بروني : « التمثل هو استحضار شيء في الذهن، وبصفة عامة، التمثل شكل تتخذه فكرة أو ظاهرة أو موضوع أو مجال في الذهن (...) إن التمثلات المجالية هي تمثل ظواهر وأشياء معينة في المجال، تمثيلها في مورفولوجيتها يقول بروني «في الوقت الراهن بدأ الجغرافيون ينصرفون عن الإدراكات المجالية نحو الاهتمام أكثر بالتمثلات المجالية. وهكذا فإن الانشغال بالتمثلات يزيد على حساب الإدراك» (8).

- أنطوان بايي : « التمثل هو إنشاء اجتماعي، جماعي أو فردي، لتمثيلات (Schémas) ملائمة للحقيقة، وذلك في إطار ايديولوجيا ما » (9).

Roger, Brunet et al, les mots de la géographie, Dictionnaire critique, Reclus, Paris, 1994, (8) P. 428-429.

Bailly, A. Ferra, R. Pumain, D. Encyclopédie de géographie, Economica, Paris, 1992, (9) p. 375.

- جان بول كيران : « التمثل هو إنشاء اجتماعي أو فردي لتمثيلات ملائمة للواقع والحقيقة »⁽¹⁰⁾.

- فرانسوا أوديجي : « التمثل بناء ذهني، وهو سيرورة معرفية وحصيلية هذه السيرورة »⁽¹¹⁾.

نستشف من هذه التعاريف وغيرها أن التمثلات هي ظاهرة مركبة عناصرها الصور الذهنية والقيم والمعتقدات والمعلومات و... هذه الكلية المنسجمة أحيانا والمتنافرة أحيانا أخرى هي تعبير عن ذات وبناء موضوع. وتأسيسا على هذا الأكسيوم تكون جغرافية التمثلات المجالية تخصصا أو اتجاهها يعني بالحركة (Le mouvement) والعمل (L'action) والصورة الذهنية (L'image mentale). إنها جغرافية السيرورات المجالية والفاعلين في المكان والزمان، قوتها في كونها تهتم بالأبعاد الذاتية للمجال دون إهمال البعدين : الموضوعي والاقتصادي.

2.2. مبادئ جغرافية التمثلات

1.2.2. مدخل ابستمولوجي

يظهر مما سبق أن كلمة « تمثل » ذات معان ودلالات متعددة (Polysémique). وإذا كان بعض الجغرافيين يعتقدون أن هذا التعدد السميولوجي قمين بعرقلة السير العادي للدراسة الجغرافية، وبالتالي إبعادها عن خاصية التحديث (L'aggiornamento) الذي بدأت تعرفه منذ ستينيات هذا القرن، فإننا نعتبر، خلافا لذلك، أن التعدد ظاهرة صحية من شأنها إثراء البحث الجغرافي. إن الاختلافات في طرائق صياغة الإشكالية الجغرافية، وتوطين الظواهر الاجتماعية، وتحليل التوزيعات والتدفقات تساهم في البحث عن هوية الأفراد والجماعات المنعزلة والطبقات والشعوب المنغلقة. وهكذا تلتقي الجغرافيا بالسوسيولوجيا والفينمينولوجيا والأنثروبولوجيا والسيكولوجيا والسيميولوجيا والاقتصاد. إن التحليل الجغرافي يتضمن

Guérin, Jean-Paul, Géographie et représentation, in André, Y., Enseigner les re- (10) présentations spatiales, op.cit., p. 77 (voir aussi, Bailly, A. et al., Encyclopédie de géographie, op.cit., p. 374).

Audigier, François, cité par André, Y., Enseigner les représentation spatiales, op.cit., (11) p. 26.

البعد الرمزي الى جانب البعدين : البنيوي والوظيفي . لقد تحدث لنتش Lynch عن المظهر البنيوي للمجال الذهني (espace mental) باعتباره يمكن من معرفة الطريقة التي يستعمل بها الأفراد بنيات الوسط خلال ممارستهم المجالية . أما المظهر الوظيفي فإنه يركز أساسا على مفهوم الزمكان (Espace-Temps) من أجل تفسير مشكلات الولوجية (Accessibilité) والمقددرات الاقتصادية للأمكنة . أما المظهر الرمزي فيكاد يكون ابتكارا خاصا بجغرافية التمثلات التي توظفه للكشف عن تنوع الدلالات المجالية وعن شبكة العلاقات التي تربط بين الإنسان والمجتمع والطبيعة .

2.2.2. المبادئ الأساسية لجغرافية التمثلات

تعرف جغرافية التمثلات كذلك بجغرافية الحركة وجغرافية الفاعلين . وتقوم على مبادئ، تميزها أحيانا عن مثيلاتها الكلاسيكية والجديدة، وتجمعها بها أحيانا أخرى . ونورد هذه المبادئ كما جاء بها أنطوان بايلي :

- مبدأ المخيال : كل مقترح جغرافي هو صورة، أي نموذج مبسط للعالم أو جزء منه .
- مبدأ التمثيل : ليس المجال في ذاته هو موضوع الدراسة، لأن الموضوع الحقيقي هو ذلك الذي نبنيه، فالمعرفة الجغرافية مؤسسة على تمثل وتمثيل الظواهر انطلاقا من المفاهيم . أن الجغرافيا لا تستطيع إذن أن تكون علم المشاهد ولكنها علم تأويل العلامات والرموز .
- مبدأ الإنشاء : يكون التمثل إنشاء لتمثيل ملائم، لكنه متحيز، لسيرورة أو لمجال . ويحيلنا هذا التمثيل الى الإيديولوجيات وطريقة بنائها .
- مبدأ التغذية الراجعة (Rétroaction) ذلك أن التمثلات تتغذى بالممارسة والعكس صحيح .
- مبدأ الوجود : يهتم الجغرافيون بالأفراد داخل المجتمع إلا أنهم هم أنفسهم جزء من المجتمع الذي يعكسون إيديولوجيته⁽¹²⁾ .

فيما يلي جدول يوضح بعض الاختلافات المبدئية بين جغرافية التمثلات وجغرافيات أخرى

جغرافيات أخرى		جغرافية التمثلات	
مفاهيم ودلالات	مجال وموحيات	مفاهيم ودلالات	مجال وموحيات
إقصاء الأنا	موضوعي	حضور الأنا	ذاتي
الإدراك بالحواس	ملمس	إحساس وعاطفة	مجرد
العلوم الحقة	الواقع الخارجي	أدبي - علم الأعصاب	المخيال الداخلي
حامل المجتمع	مادي	حامل ومنتوج	اجتماعي
الكليانية	الحياد	الفردانية	الغيرة الإنسانية
ظاهري	خارج عن الذات	باطني	مركز حول الذات
قابل للملاحظة	معطى	قابل للملاحظة لكنه غير	مشيد
والقياس والتعميم		قابل التعميم	
إنتاج قواعد علمية	نوموتيكي تعميمي	وصفي وتفسيري	ايديوغرافي فردي
إحصائي	كمي حتمي	غير إحصائي	كيفي نوعي
الظواهر العلمية	وضعي	الظواهر الفردية	فينمولوجي

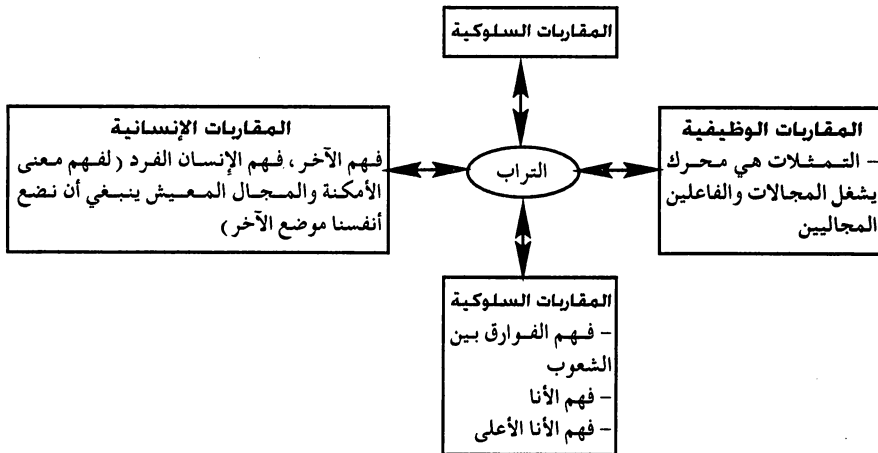
3.2. إدراج التمثلات في دراسة وتدريس الجغرافيا

تطورت جغرافية التمثلات في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الأربعينيات بينما تأخر اعتمادها في الجغرافية الفرنسية الى أوائل الستينيات. وقد استوحيت هذه المولودة الجديدة الشيء الكثير من الجغرافية الاجتماعية والفينمينولوجيا. كما أنها حاولت أن تقطع ابستمولوجيا مع الجغرافيا الكلاسيكية التي ظلت تعتبر المجال شيئاً مطلقاً وملمساً قابلاً للتحليلات الموضوعية. إن جغرافية التمثلات تعتبر المجال الجغرافي مجرداً ومشيداً من قبل الأفراد والجماعات. ولذلك تستوجب دراسته مقاربة شمولية، ذاتية وموضوعية، كيفية وكمية، استنباطية واستقرائية، تأويلية ومحايثة. ففي المجال الواحد يتداخل المخيال بالإحساس، واللاوعي بالوعي. وإلا كيف نفسر موضوعياً تشبث ساكنة ما بمكانها رغم قساوته أو رداءته (Yu Fi Tuan)، وكيف نفسر مقاومة أخرى ورفضها لتجديدات (Innovations) نبغي نشرها (13).

(13) Bailly, A et Béguin, H. Introduction à la géographie humaine, Masson, Paris 1992, P. 15.

إن مجال الجغرافي متميز بالفوضى (Le chaos) ، وقد بين إدكار موران (Edgar Morin) في عدة مناسبات العلاقة التفاعلية بين النظام (L'ordre) واللا نظام (Le désordre) . فإذا أراد الجغرافي أن يفهم نشأة هذا العالم المعقد وتطوره، وإذا أراد البحث عن النظام داخل هذه الفوضى، يجب عليه أن يتقبل الطابع العشوائي للتغيير، وكذلك اللاعقلانية الظاهرة للسلوكات البشرية. وهو مطالب أيضا بالاهتمام برمزية المكان على طريقة كاستون باشلار، وبمظاهره الأسطورية على طريقة كوكلان (A. Coquelin)، وبدلالاته الذاتية على طريقة سانصو (L. Sansot) (14). وفي هذا السياق يرى محمد بوغالي أنه «خلف اللا نظام الظاهر لخرائط العالم المنجزة من لدن مغاربة أميين، ينوي تنظيم مبني على انشغالات متعددة. إن هؤلاء الأميين يوطنون بلدهم في المجال انطلاقا من نقط جغرافية أخرى، إلا أن العلاقة هنا ليست علاقة موضوعية طبوغرافية ولكنها علاقة ذاتية متصورة ومتخيلة من طرف المسؤولين أو المفحوصين» (15).

نستنتج مما سبق الأهمية المتزايدة للتمثلات في البحوث الجغرافية، أهمية أفرزت العديد من المقاربات لإشكالية التمثلات في الجغرافيا.



شكل رقم 3 : أهم تيارات التمثلات في الجغرافيا (عن إيف أندري : مرجع سابق، ص. 78-79 بتصرف)

Bailly, A., L'imaginaire spatial, plaidoyer pour la géographie des représentations, Re- (14) vue Espace Temps 1989, n° 40-41, p. 53-54, C.N.R.S.

Boughali, M., op. cit., p. 251-265, voir aussi, p. 183-226.

(15)

4.2. المفاهيم الجغرافية في سياق التمثلات

إن اعتماد مفهوم التمثلات في التحليل والاستقصاء الجغرافيين، سواء على مستوى التعليم أو على مستوى البحث الأكاديمي، قد أدى إلى إعادة النظر في عدد من المفاهيم الجغرافية كالمجال والمسافة والمكان والتراب والجهة والمقياس...

1.4.2. L'espace : المجال

أدت الثورة الاستمولوجية التي شهدتها الجغرافيا خلال الخمسينيات والستينيات إلى ميلاد مفاهيم جديدة توجت بتبني المجال كمفهوم مركزي في الفكر الجغرافي لدرجة أن الجغرافيا بدأت تعرف بأنها «علم المجال». إلا أن أصحاب جغرافية التمثلات يفضلون تعريفها بطريقة مغايرة «دراسة تنظيم المجال والممارسات المجالية المترتبة عن ذلك». وهذا يعني بكل صراحة أن المجال الجغرافي ليس مجالا اقليديا معطى ومطلقا، بل هو مجال ذاتي، مجرد وغير متري.

إن جوهر المجال يكمن في الطريقة التي يمثله بها الأفراد وفي الفكرة التي يكونونها عنه. فالمجال الجغرافي هو أولا مجال سيكولوجي قبل أن يكون تاريخيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا. وليس الإنسان الذي يدرس هذا المجال مجرد فرد محايد يمكن وضعه في معادلة رياضية، ولكنه كائن من لحم ودم، يخضع أحيانا إلى نزوات ليس للعقل عليها أية سيطرة. وأكثر من هذا ليست الغابة والبحر والثلج مجالات للرياضة والارتقاء والترهة في التمثلات الاجتماعية أكثر من كونها حقائق فيزيائية طبيعية⁽¹⁶⁾. إن الجبل حسب كوميشيان (Gumichian)، مجال قروي ومعاش أكثر من ارتفاع كما يتصوره الجغرافي ويتمثله المهندس، (إيف أندري، ص. 114).

وفي نفس السياق يمكن أن نقول بأن /الجبل/ كدال (Signifiant)، له مدلول (Signifié)، قد يحيل إلى التزحلق، أو الرياضة أو التجول بالنسبة للسائح وقد يحيل إلى الرعي أو الخشب أو الانتصار على الاستعمار بالنسبة لإنسان يسكن الجبل. إلى جانب العلاقة الطبيعية (naturel) بين الدال والمدلول، هناك علاقة اتفاقية (Conventionnel) أو اعتباطية

(16) Giolitto, Pierre, enseigner la géographie à l'école, Hachette éducation, 1992, p. 29.

تعسفية (arbitraire) على حد تعبير فرديناند دس سوسور (Ferdinand de Saussure) « ليس الإنسان في حاجة الى تسجيل واع ، وبطريقة خطية ، لجميع الأجزاء الحاضرة من أجل تكوين فكرة شمولية عن المجال الذي يزوره أو يسكنه (...) . إن الفكرة الشمولية الناتجة ليست هي الحقيقة الموضوعية ، أي المجال كما هو ، ولكنها المجال المعاش ، الذي مرّ بالمصفاة الذاتية للإدراك . وهذه المصفاة مشروطة بتجارب الذات القبلية ، وبلغتها وثقافتها⁽¹⁷⁾ . وهكذا فإن جغرافية التمثلات تستعمل المجالات بدل المجال والمسافات بدل المسافة .

2.4.2. المسافة : La distance

المسافة في التصور الأقليدي هي مجال مستقيم ، وفرق مكاني بين نقطتين . وقد ظلت الجغرافيا منحصرة في استعمال المسافة الكيلومترية ، إلا أن جغرافية التمثلات طرحت عدة بدائل منها المسافة العاطفية الوجدانية ، التي تأخذ بعين الاعتبار ما يسقطه الفرد من أحاسيس على كل مسافة يعبرها أو يتخيلها ، وتعتبر الخرائط الذهبية التي دشنها بيتر كولد (Peter Gould) مثالا واضحا لإدراج القيم والصور الذهنية ، والتمثلات الفردية والجماعية في التصور العام للمسافة .

في هذا الإطار يبين محمد بوغالي كيف يتمثل الأمي المغربي المسافة بين نقطتين جغرافيتين⁽¹⁸⁾ كما أن الخرائط ذات الأبعاد البعيدة (Les piézoplèthes) التي وضعتها الباحثة كوفان (C. Cauvin) ، توضح الروابط الموجودة بين المدن الفرنسية بواسطة وسيلة نقل معينة كالقطار ذي السرعة الكبرى (T.G.V.) . وهكذا قاست المسافة الكيلومترية بالزمان ، فاستعملت الأنامورفوز (L'anamorphose) للانتقال من «المقياس الطبوغرافي» الى «المقياس الزمني» . ومن هذا المنظور تتمثل الباحثة المدن التي يتوقف بها القطار (T.G.V.) في شكل مدن متقاربة فيما بينها ، بينما تتمثل المدن التي لا يتوقف بها القطاع متباعدة فيما بينها⁽¹⁹⁾ . وفيما يلي بعض أنواع المسافات : المسافة الكيلومترية (à vol d'oiseau) ، المسافة الزمنية distance-temps المسافة السعرية (Distance coût) ، المسافة السيكلولوجية (Distance psychologique)

Miess, Von Pierre, de la forme au lieu, un introduction à l'étude de l'architecture. Presse (17) polytechniques romandes, Lausanne, 1986, p. 113-114.

Boughali, Mohamed, op.cit., p. 174.

(18)

Bailly. A., Ferras, R. Pumain, D., op. cit., p. 14.

(19)

المسافة الاجتماعية (Distance sociale) المسافة الزكنية (Distance angulaire)، المسافة الربعية (Distance quadratique)، مسافة منهاطن (Distance de Manhattan)، مسافة مينكوفسكي (Distance de Minkowski) (20).

3.4.2. المكان : Le lieu

إن المكان ليس مجرد حامل فيزيقي، ولكنه أيضا حقل دلالي خصب، يحبل بالكثير من الأحاسيس والتخيلات والقيم. فقد تصور مارتن هيدغر (Heidegger 1889-1976 Martin) المكان كأنه شيء له قوة الجمع بين رباعي الكون (quadriparti) الذي هو : الأرض (Terre)، السماء (Ciel)، الأموات (Mortels)، والسمايون (Divins).

أما المدرسة الهوسرلية (Husserl) فترى أن الإنسان هو الذي يسقط المعنى على المكان والموضوع، ويعرف المهندس المعماري السويسري بييرفون ميس (P. Von Miesse, p.145-155)، المكان بأنه شيء مكون من التفاعل بين الناس والزمان والمجال، فهو أصل الالتقاء الديناميكي بين الخطاطات المفاهيمية المرتبطة بتمثل العالم، وبين الوضعيات الزمانية والمجالية الخاصة، وهن طريق هذا الالتقاء، يكتسي المكان بعده الثقافي. إن المكان ينشأ حسب بزنارد هوييت (Bernard Huet) من التصرفات والسلوكات الاتفاقية المرتبطة بخطاطات مفهومية حول وضعيات مجالية من الضوء، والشكل و... إن جميع علاقات الناس بالأمكنة هي مشفرة بعلامات ورموز تمنحها المعنى (...). وفك هذه الشفرة هو من ضروريات الجغرافيا (21).

4.4.2. التراب : Le territoire

إنه بناء عاطفي واجتماعي الى جانب كونه معطى سياسي واقتصادي وقانوني. إن اعتبار تمثيلات السكان شرط ضروري لإنجاح التهيئة أو الإعداد الترابي. فعندما يصبح مجال ما معمرا ومحتلا من طرف مجتمع ما، احتلالا ماديا أو معنويا، فإنه يصير ترابه، ذلك لأن تملك التراب يكون أيضا بالروابط والقرارات التي تتجاوز مستوى الممارسة الملموسة. وفي هذا الصدد يرى

Roger, Brunet et al, les mots de la géographie, Dictionnaire critique, Reclus, Paris, (20) 1994, p. 164-164-165.

Idem, p. 381.

(21)

بيفوطو (Piveteau J.L.) أن التراب ينبثق من مقارنة نوموطيكية وأخرى ايديوغرافية، استنباطية تعميمية واستقرائية وصفية، الأولى نازلة لأنها تطمح الى تعميم القواعد والقوانين، والثانية صاعدة لأنها تركز على الخصوصيات الفردية إن أحد مؤرخي مدرسة الحوليات الفرنسية، لوروا لا دوري (Le Roy Ladurie) يستعمل الاستعارة أو الانزياح في اللغة (L'écart) من خلال عبارة « / تراب / المؤرخ » (Le territoire l'historien) للدلالة على الميدان الذي يزوال فيه نشاطه. كما أن ادغارموران استعمل عبارة « / تراب / العلوم » (Le territoire des sciences) للدلالة على مجال التجريب والعمل والتفكير الذي يزاول فيه «العالم» أنشطته.

5.4.2. La région : الجهة

لقد ذهب بول سانصو الى حد القول «بأن الجهة لا تحيي إلا بانخراط السكان فيها وتعميرهم لها. فهم الذين يسكنونها ويمزجون مصيرهم بمصيرها»⁽²²⁾. إننا نرى أن الجهة في جغرافية التمثلات، ليست مجرد الجهة الطبيعية المتجانسة، ولا الجهة الاقتصادية الاستقطابية، ولا الجهة الإدارية المقسمة والمقطعة، ولكنها كذلك الجهة العاطفية والمعايشية من قبل أفراد يمتلكون الإحساس بالانتماء الى مجال هو جزء منهم. فقد أشرنا سابقا الى أن كانط يعتبر عدم قدرة العلوم الاجتماعية على النفاذ الى المواضيع التي نود دراستها إذ أنها لا تنفذ إلا الى التمثلات التي تتكون لدينا حول هذه المواضيع. ويضيف بايي وأندري أننا لا ننفذ الى الجهة ولكن فقط الى بعض صفاتها. ان ما ندرسه هو عبارة عن نماذج للعالم وليس الواقع أو الحقيقة⁽²³⁾.

6.4.2. L'échelle : المقياس

إن إعادة النظر في هذا المفهوم ليست ثمرة التمثلات، ولكنها نتيجة لشورة ابستمولوجية. وهكذا لم يعد مقبولا، سواء على مستوى البحث الجغرافي أو على مستوى الممارسات الخطابية الحجاجية، حصر المناقشة في المقياس الكارطوغرافي الذي يكون في شكل كسري أو خطي بياني. (مقياس كبير ومقياس صغير). لقد أصبح المقياس مفهوما أكثر من مصطلح علمي ثابت الدلالة ووحيد المعنى. إذ نجد الحديث عن المقياس الاجتماعي والمقياس الاقتصادي...

André, Yves, enseigner les représentations spatiales, op.cit., p. 88. (22)

Bailly, Antoine et Ferras, Robert, éléments d'épistémologie de la géographie op.cit., (23) p. 15.

3. واقع التمثلات في الإنتاج الجغرافي بالمغرب

1.3. حضور ضعيف

إن الحديث عن التمثلات في الإنتاج الجغرافي بالمغرب يقود منهجيا، الى طرح سؤال حول طبيعة ونشأة هذا الإنتاج نفسه . وعندما نرجع الى أعمال الندوة التي عقدت حول البحث الجغرافي في المغرب . نجد هذا الإنتاج سجين رؤية ما ضوية (الحماية) سواء في طرائقه أو في أهدافه والموضوعات التي يعالجها . الشيء الذي غيب بعض المفاهيم الحديثة مثل التمثلات التي لا يزال البعض يعتبرها حكرا على السيكلوجيا وعلم النفس المعرفي .

إن إدخال التمثلات الى الجغرافيا يقتضي نوعا من التناهج والانفتاح على التخصصات التي رأيناها تهتم الفردية والجماعية . غير أن الجغرافي المدرس أو الباحث حاليا ، الطالب سابقا ، يفتقر الى هذا الانفتاح لأن المقررات والبرامج ، تفصل ابتداء من السنة الثالثة إجازة ، بين التاريخ والجغرافيا ناهيك عن التهميش الكلي لبعض المواد التي تعتبر ضرورية لإغناء المعرفة الجغرافية ، كالفلسفة واللسانيات . ويرجع هذا الفقر في رأينا الى غياب مناهج (Curriculums) واضحة ودقيقة في النظام التعليمي المغربي والى غياب السند الاستمولوجي - «في المقررات الحالية» يأخذ بعين الاعتبار تمثلات الفئات المعنية (تلاميذ ، طلبة ، مدرسون ...) ونعتقد أن الوقت قد حان ليعرف الجغرافيون أن أنساقهم مفتوحة وليست مغلقة كما يرى البعض في الانساق الرياضية⁽²⁴⁾ ، فلا بد إذن من التكوين المستمر للجغرافي والباحث والإنسان بصفة عامة . الشيء الذي حدا ببعض المنظمات الدولية والإقليمية الى عقد ندوات ولقاءات تحت فيها الرأي العام والمنظمات الحكومية وغير الحكومية على التناهج والتعايش والتلاقح والتكوين المستمر في إطار «التربية مدى الحياة L'éducation tout au long de la vie»⁽²⁵⁾ .

(24) Brunet, Roger et al, les mots de la géographie, op.cit., p. 472, voir aussi.

عمر الفراء محمد ، مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، 1978 ، ص . 28 .

(25) Delors, Jacques, et al., l'éducation, un trésor est caché dedans, Publication de l'UNESCO, 1994, p. 108.

2.3. غياب التمثلات في خطط التهيئة

إن الاهتمام بالتمثلات الفردية والجماعية التي تكونت لدى المجتمع المغربي عن المجال في مقاييسه المختلفة، اهتمام ضعيف جدا، فحسب علمنا، هناك محاولتان تستحقان التشجيع : المحاولة الأولى قام بها السوسيولوجي والانتوغرافي المغربي، محمد بوغالي، والثانية قام بها الجغرافي المغربي محمد بلفقيه. إن البحث الذي أنجزه بوغالي ما بين 1969-1971، سمح برصد وتحليل وتأويل التمثلات المجالية عند بعض المغاربة الأميين. ووظف في ذلك عدة تقنيات وطرائف كالرسوم والملاحظة المباشرة والاستبيانات والمقابلات الشخصية الى جانب الخرائط الذهنية.

أما بلفقيه، فكان يوجه طلبته الى طريقة رصد وتشخيص التمثلات التي يختزنها سكان الرباط وسلا حول المجال. ونعتقد أن اعتماد المخططين وأصحاب القرار السياسي على هذا الصنف من الدراسات أضحى ضروريا في تهيئة التراب الوطني، بحيث أن الدراسات الأولية التي تسبق المشروع في بلدنا، لا زالت دراسات تقنية محضة، اجتماعية غير معمقة عند الاقتضاء. فعلى سبيل المثال لا تزيد احتمالات نجاح مشروع الإصلاح الزراعي إلا بتشخيص التمثلات التي يكونها السكان المعنيون حول مجالهم.

في هذا السياق يحاول بوغالي الكشف عن «الأسباب العميقة لتشكيل تمثلات بعض المزارعين لمليكتهم العقارية، المجزأة والمتناثرة. إذا أن التجزئة والتباعد يعينان بالنسبة لهؤلاء، فرصة للربح المادي والكثرة وحضور نفوذ القبيلة أو الشخص في أمكنة متعددة» (26). إن العلاقة بين الدال والمدلول التي هي علاقة شبه طبيعية عند هذه الشريحة تصبح علاقة اتفاقية أو اعتباطية عند أمريكي مثلا ألف الاستغلاليات الكبرى فهو لا يرى في هذا التشتت المورفولوجي إلا نوعا من «ضياع الوقت والجهد بدون أية ضمانة».

وفيما يلي نقدم مثالين يبرزان تهميش التمثلات في سياسة الإعداد والتخطيط التنموي :

1.2.3. يرجع فشل مشروع لمؤسسات لعطاطرة الذي وضعته الدولة منذ سنة 1963 بمنطقة دكالة الى تهميش الجغرافيين من جهة، وعدم الأخذ بعين الاعتبار المجال السيكلوجي والتاريخي للمنطقة المعنية. فقد حاولت الدولة تجميع الأراضي (remembrement des terres) عن طريق إقامة قرى نموذجية (Villages pilotes) فوق المساحات المنتزعة، وكان الهدف هو تحقيق تنمية زراعية عمودية بتحسين المردودية من خلال تكثيف الإنتاج، واستعمال الأسمدة والمبيدات الكيماوية والبذور المختارة، وطرق وأساليب السقي والحرث الحديثة. إلا أن مشروع إعادة هيكلة السكن القروي، والإصلاح الزراعي فشل لعدم اعتبار المخططين لمركبات السكان السيكلوجية والتاريخية أو تمثلاتهم المجالية. فقد بينت التجربة أن الدواوير التي تم تجميعها في شكل كونجلومرا، ظلت سجينة عدااء ونزاعات تاريخية قديمة بينها. كما أن بعض العناصر التي كانت تتمتع بامتيازات داخل الدوار الواحد تخوفت من أن تضيع منها، ناهيك عن كون محاولات التحديث ونشر المستجندات الفلاحية لم تدرك حقيقة أساسية وهي أن عقلية السكان كانت لا تزال نابذة ومقاومة أكثر منها جاذبة ومتقبلة (هاكر ستراند).

2.2.3. وفي مجال السكنى والتعمير، تكشف مخططات تنظيم التراب (Plan d'urbanisation sol) ، والتصاميم المديرية للتهيئة الحضرية (Schéma Directeur d'aménagement Urbain) عن إهمال جانب التمثلات الخاصة. إننا نلاحظ دائما أن السلطات المحلية تفرض، فيما يخص البناء، معايير ومقاييس وتصاميم محددة لا تلامس الأشخاص المعنيين. وفي حالة عدم احترامها لا تمنح رخص السكن. وهنا تكمن المفارقة الكبرى لأن العائلة تتكون مثلا من اثني عشر فردا، بينما تفرض السلطات تصميمات من ثلاث غرف. إن المواطن هو الذي يتحمل كل العواقب رغم أنه موضوع في إطار إنجاز مشروع مصيري بالنسبة إليه : مشروع مؤسس على تمثيل، وهذا التمثيل مؤسس على معادلة هي «الدار قبر الدنيا».

خاتمة

لقد أدى اتجاه التمثلات في الجغرافيا ردود فعل متباينة نكتفي بذكر بعضها :

موقف معارض : يعد كلود بوليو من أهم ممثلي الاتجاه الرافض لجغرافية التمثلات

نظرا لطبيعتها العاطفية والوجدانية . يقول بوليو (Pouliot) : «في الواقع ، كيف يمكن أن نقبل جغرافيا تسقط ، وتتماهى في العاطفة والوجدان ؟ إن بايي يدحض الموضوعية الديكارتية أو «الاختزالية» ليس من أجل بناء موضوعية أخرى تكون بديلة ، ولكن فقط من أجل إحلال الذات محل الموضوع»⁽²⁷⁾ .

موقف مؤيد : يمثلها ايف اندري الذي يدافع من أجل هذه الفردية والعاطفة والمخيال .

كما أن ماري كليروبيك تحدثت عن الجغرافيا في سياق ما بعد الحداثة (Postmodernité)⁽²⁸⁾ . ونحن نعرف إماراتها الثلاث التي هي : اللاعقلانية (Irrationalisme) ، اللانظام Désordre ، الاستقرار L'instabilité .

موقف وسط بين الموقفين الرافض والمتحيز : يمكن أن ندرج موقف كل من

فليب وجنيفيف بنشمل وكريستيان دوديل . يقول بنشمل «إن المقاربات الكمية تطرح مشكل الغايات والوسائل بينما تحصر الوسائل الأدبية الجغرافيا في القيم الإجرائية . إن الوسائل الكمية أكثر إجرائية لأنها تفتح نوافذ وآفاقا نظرية ، ولكنها لا تستشير إلا ما هو قابل للقياس . إنها تدرج إلا جزءا من ثوابت الواقع وبالتالي قد تفقد الجغرافيا جزءا من جوهرها»⁽²⁹⁾ . أما دوديل فيقول «في الجغرافيا ، العلاقة متينة بين مفهوم الإدراك ومفهوم التمثلات الذهنية أو المجازية . فكلاهما يشكلان وجهين لورقة واحدة»⁽³⁰⁾ .

Pouliot, Claude, Science ou empathie, Rev. Espace Temps, op.cit., p. 59. (27)

Robic, Marie-Claire, du milieu à l'environnement, Paris, 1992, p. 89. (28)

Pinchemel, Philippe et Geneviève, la face de la terre, éléments de géographie humaine, (29) Armand colin, 1992, p. 442.

Daudel, Christian, les fondements de la recherche en didactique de la géographie, Peter (30) lang. Berne, Suisse, 1990, p. 154.

ويستنتج روبير فيراس وأنطوان بايلي من مقولة لموسكوفيشي أن الجغرافيا معرفة مبنية من طرف جماعة باحثين لها الاجتماعية والعلمية الخاصة، وذلك انطلاقاً من منطق يكون فيه فهم عالم العلوم الإنسانية مستدعياً فهم الكيفية التي يدبر الكفر بها العلاقات والمؤسسات. وذلك لأن كل علاقة أو مؤسسة إلا وتمرر صورا ومصطلحات ما (31).

في نهاية الدراسة النظرية نلح على أن التمثل ليس صحيحاً ولا خاطئاً، ولكنه أكثر أو أقل إجرائية. ولكي نمسح الجغرافيا دينامية وروحا جديدين، ينبغي أن يفهم الجغرافيون أن اعتبار التمثيلات المجالية للأفراد والجماعات أضحي من الشروط اللازمة لملاءمة ومصادقية الخطاب الجغرافي.

المراجع المعتمدة

1. كانط إيمانويل، نقد العقل الخالص، الترجمة الفرنسية، محمد وقيدي، ما هي الاستمولوجيا؟ مكتبة المعارف، 1987، ص. 155.
2. عمر الفراهي محمد، مناهج البحث في الجغرافيا بالوسائل الكمية، وكالة المطبوعات، الكويت، 1983.
3. André, Yves, Enseigner les représentations spatiales, Anthoropos, Economica, Paris, 1998.
4. André, Y et Bailly, A., Les représentations spatiales des territoires et du monde, Revue Perspectives, n° 106, vol XXIII, Juin, 1998, p. 307-311, Publications de l'UNESCO
5. Bailly, A., L'imaginaire spatial, plaidoyer pour la géographie des représentations, Revue, espace temps 1989, n° 40-41, p. 53-54, C.N.R.S.
6. Bailly, A. et Ferras, R. éléments d'épistémologie de la géographie, Armand colin, Paris, 1997.
7. Bailly, A et Béguin, H., les concepts de la géographie humaine, Masson, Paris, 1992.
8. Bailly, A et Béguin, H., Introduction à la géographie humaine, Masson, Paris, 1992.
- Bailly, A et Ferras, R. éléments d'épistémologie de la géographie, op. cit., p. 15. (31)

9. Bailly, A., Ferras, R., Pumain, D.n Encyclopédie de géographie, Economica, Paris, 1992.
10. Borbolan, Jean Claude Ruano, une notion clef des sciences humaines, Revue, Sciences Humaines, 1993.
11. Boughali, Mohamed, la représentation de l'espace chez le marocain illettré, éd., Afrique, Orient, Casablanca, 1974.
12. Brunet, R. et al., les mots de la géographie, Dictionnaire critique, Reclus, Paris, 1994.
13. Daudel, Ch., les fondements de la recherche en didctique de la géographie, Peter lang., Berne, Suisse, 1990.
14. Delord, J, et al., 1998, l'éducation,un trésors caché dedans, Publications de l'UNESCO.
15. Denis, M., 1989, Image et cognition, Paris, PUF.
16. Giolitto, Pierre, enseigner la géographie à l'école, Hachette éducation, 1992.
17. Giordan, A. et al., Les origines du savoir, Delachaux et Niestlé, Paris, 1987.
18. Guérin, Jean, Paul, Géographie et représentation, in André, Y., enseigner les représentations spatiales, op.cit., p. 77 (voir aussi, Bailly, A. et al., Encyclopédie de géographie, op.cit., p. 374).
19. Jodelet, Denise et al., les représentations sociales, P.U.F., Paris, 1987.
20. Miess, Von Pierre, de la forme au lieu une introduction à l'étude de l'architecture Presse polytechniques romande, Lausanne, 1986.
21. Piajet, J., Inhelder, B., la représentation de l'espace chez l'enfant, P.U.F., Paris, 1948.
22. Pinchemel, Philippe et Geneviève, la face de la terre, éléments de géographie humaine, Armand colin, 1992, p. 442.
23. Platon, la république, Flammarion, Paris, 1966.
24. Pouliot, claude, 1989, Science ou empathie, Rev. Espace Temps, n° 40-41, p. 53-63, CNRS.
25. Robic, Marie-Claire, du milieu à l'environnement, Economica, Paris, 1992.